

الجزء الأول

المجلد التاسع والعشرون

مجلة المجمع العلمي العربي

دمشق



الأول من كانون الثاني سنة ١٩٥٤ م

السادس والعشرون من ربيع الآخر سنة ١٣٧٣ هـ

الجزء الأول

المجلد التاسع والعشرون

مجلة المجمع العلمي العربي

دمشق



الأول من كانون الثاني سنة ١٩٥٤ م

السادس والعشرون من ربيع الآخر سنة ١٣٧٣ هـ

(١) مناظرة عالمين في مجلس المأمون

أيها السادة !

أحببت أن أقدم بين يدي محاضرتي هذه الكلمة نوطنة لموضوع المحاضرة
فأرجو أن تحسن في سمعكم ، وتحف على طبعكم :

* * *

قامت في هذه الآونة بدمشق مناظرة بين بعض الأسماء في موضوع أدبي
تاريخي ، فكان لأحد الاستاذين رأي خالفه فيه زميله ، وكان إخوان
المتناظرين وأصدقاؤهم يتنازعون بينهم ، ويرفعون أصواتهم بالتخرب لهذا أو لذلك .
أما هما فكانا آخذين في شأنهما ، عاكفين على بحثهما ، محافظين على هدوءهما
وأناهما ، وصلة الزمالة بينهما . وقد ضرب بعض الفضلاء هذين الاستاذين مثلاً :
مطران لندرة والفيلسوف (راسل) ذلك أن المطران والفيلسوف اختلفا في أي
الأمرين أفضل في إصلاح البشر ؟ (التدين) أو (الإلحاد) . فكان المطران
يقول : إن التدين أضمن لسلامة المجتمع البشري وصلاحه . والفيلسوف راسل
يقول العكس . وفي آخر الأمر عُقد لهما في لندرة مجلس مناظرة ، شهد
طائفة من أشياعهما : فكان الأشياع والأنصار في ضجيج وصخب : بل في أوار
لهب ، ونار غضب ، من أجل العصبية للمتناظرين ، والمتناظران في جنة من أناهما

(١) محاضرة لشيخ عبد القادر المغربي ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي
في ٢٨ آذار سنة ١٩٢٥ .

ورزانتها وحسن تناصفهما وطيب نفسيهما ، غير عابئين بما كان يقومُ ويقعدُ ،
ويبرقُ ويرعدُ . وراء جدار غرفتهما .

* * *

حدث المناظرة هذا ، أوحى إليّ موضوع محاضرتي هذه ، وأوقع في نفسي
ذكري المناظرات الممتعة التي كانت تقع في تاريخ العرب ، وفي مجالس خلفاء
العرب ، والتي تدل على فضل علمائنا ، وسعة صدر خلفائنا ، والاستفادة من
الحريتين العلمية والفكرية ، إذا أطلقنا في ما بيننا . هكذا كان شأن السلف
حتى كانت أرباب المقالات المذهبية ، وزعماء الفرق والنحل في الاسلام يجلسون
في جامع الكوفة ، كل منهم في جانبٍ منه ، وكانت تبلغ حلقاتهم بضع عشرة
حلقة ، ولكلٍ منهم أنصار ومريدون يؤيدونه ، ويتبعون قوله . وهناك مخالفون
له يردون عليه . وفيقولون رأيه ، وما كان أحد منهم يجرأ على أن يقول
لمناظره اسكت ولا تقل هذا ، أو لا يجوز لك أن تقول هذا أو أبلغ أمرك
الى السلطان ، بل كان لهم من حرية الاسلام وحماية الخلافة ما على أساسه
بنى الأوروبيون حريتهم الفكرية التي كان من نتائجها مدينتهم الحديثة . وقد
صور لنا فيلسوفهم فولتير هذه الحرية ، بالطف تصوير ، وأجل تعبير مذقال :
(إنني لا أوافقك على ما تقول ، ولكنني أقاوم جهد طاقتي كل من أراد أن
يلبك حريتك في أن تقول) .

دعونا الآن من الأوروبيين وعودوا بنا الى ما كان من حرية العلم والفكر
ومجالس المناظرة في تاريخ الاسلام ، وعهد خلفاء العرب الكرام .

**

لو أقسمُ مُقسمٌ بأنه لم تقم في القرون الخالية أمة تضاهي الأمة العربية في حب العلم والتفاني باسم العلم ، والتفني في نشر العلم لما كان غالباً ولا حاشاً .
وبديهي أن السبب في ذلك هو القرآن الكريم : فقد اتفق علماء التفسير على أن أول كلمة أنزلت من السماء على قلب النبي العربي (ﷺ) هي كلمة (اقرأ) : التي افتتحت بها سورة (اقرأ باسم ربك الذي خلق) وبعد أن أمره الوحي بالقراءة أرشده الى تمجيد الخالق الذي كان من أكبر نعمه على البشر أن علّمهم ما لم يكونوا يعلمون . ومهد بين أيديهم السبل والأسباب لتحصيل العلم . فقال : (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .
وانما قال علّم بالقلم لأن القلم آلة الكتابة المعروفة في ذلك العهد . فالوحي نبّههم الى الشكر لله على نعمة آلة الكتابة التي يعرفونها ، فلا ينافي هذا أن نشكر له تعالى على أدوات الكتابة التي هدى اليها البشر فيما بعد : كالقلم الحديدي والقلم الرصاصي وآلة الطباعة والآلة الكاتبة التي تسمى بالافرنجية (تايب ريتير) ثم آلة تصوير الكتابة التي اخترعت أخيراً وتسمى (فوتوغرافير) .
وقد سمعتُ مرةً بعض شيوخ الدين المتعصبين للقديم يفضل 'كُتُب العلم المخطوطة على الكتب المطبوعة . ويقول إن بالكتب المخطوطة وحدها الفتوح والبركة والفائدة : ذلك لأن الكتب المخطوطة كتبت بالقلم الذي نوّه به الوحي الإلهي مذ قال تعالى : (علّم بالقلم) ولم يقل علم بالطبع ولا بآلة (تايب ريتير) . ويستدل على ذلك أيضاً بتيجر أسلافنا العرب في العلوم ووضعهم المصنفات الكبرى التي كل واحد منها يشبه أن يكون دائرة معارف مما لا يقدر على مثله اليوم إلا الجمعيات المؤلفة من عدة أشخاص . وما ذلك إلا ببركة كتب الخط المكتوبة بقلم القصب ، الكريم الأصل والنسب .

- هذا ما كان يقوله ذلك الفقيه الصالح . ولا ينسج معنا الوقت لمجادلته ؛
فلنرجئها الى وقت آخر . ولنقبل على الموضوع .
- الكلام على (العلم في أمتنا العربية) يشتمل على مسائل كثيرة :
- (١) ما ورد من الخضر على طلب العلم في القرآن والحديث الشريف .
 - (٢) مسائل العلوم التي امتلأ بها القرآن وفاضت بها كتب السنة .
 - (٣) ما روي عن علماء العرب في مزايا العلم والعلماء .
 - (٤) اشتغال علماء العرب بالعلوم ووضعهم المصنفات فيها .
 - (٥) جمع ملوك العرب وعظمائهم للكتب وتشبيدهم دوراً خاصة لها .
 - (٦) عقدهم مجالس المناظرات العامة بين العلماء لأجل تمحيص الحقائق العلمية .
 - (٧) العلوم التي اخترعها علماء العرب أو تناولوها من الأمم القديمة عن كذب فوسعوا دائرتها ، وأصلحوا أصولها ، وفرعوا مسائلها . ثم استفاد منها الافرنج في نهضتهم ومدنيتهم الحديثة .

* * *

(علم المناظرة)

- ومن هذه العلوم (علم المناظرة) .
- الداعي لوضع علم المناظرة هو أنه لما كانت العلوم تنزايد يوماً بعد يوم . وكانت مراتب أذهان المشتغلين بها متفاوتة مختلفة . وكان لا يخلو علم من تصادم الآراء ، وتباين الأفكار بين أهله - لذلك كله مست الحاجة الى وضع قانون يقف وقفة الحكم بين الجانبين المتناظرين بشرط أن يراعى فيه الوصول الى الحق . والأمر كان مكابرة ومشغبة .
- وهذا القانون هو (علم المناظرة) وربما كان في قوله تعالى : (ووضعت الميزان)

إشارة إلى هذا القانون، ولما كان مبناه على أساس تأدب أحد المتناظرين مع رفيقه سموه أيضاً : آداب البحث .

وقالوا في تعريفه هو :

علم بأصول 'يبحث فيه عن كيفية إيراد الكلام بين المتناظرين . و (موضوعه) الأدلة من حيث أنه يثبت بها المدعى على الغير . و (الفرض منه) تحصيل ملكة المناظرة لئلا يقع الخطب في البحث ويضيع الصواب .

وأشهر المصنفات العربية في هذا الفن (فن آداب المناظرة) هي :

(١) آداب شمس الدين السمرقندي ، المتوفى في حدود (٦٠٠) للهجرة .

(٢) آداب عضد الدين الأيوبي ، المتوفى سنة (٧٥٦) .

(٣) آداب ابن كمال باشا المتوفى سنة (٩٤٠) .

(٤) آداب طاشكبرى المتوفى سنة (٩٦٢) .

وقد جرت بين علمائنا في العصور المختلفة مناظرات ذات شأن يجد المطالع نماذجاً صالحة منها في كتب التراجم ، ولا سيما في كتاب (معجم الأدباء) لياقوت ، وفي كتاب (الطبقات الكبرى) لنجاح الدين السبكي .

أما اهتمام خلفاء العرب وأمرائهم بالمناظرات فحدث عنه ولا حرج ، وأشهرهم في ذلك بل وفي حب العلم والعلماء (المأمون العباسي) .

سأله يوماً أحد أبناء عمه من بني العباس :

— أيحسن بنا طلب العلم والأدب ؟ (يعني ونحن أبناء ملوك) فأجابه المأمون :

— والله لأن أموت طالباً للعلم خير من أن أعيش قانعاً بالجهل .

— وإلى متى يحسن بي طلب العلم ؟

— ما حسنت بك الحياة .

كانه يقول : ما دمت ترى الحياة حسنة يكون طلب العلم حسناً ، والحياة

حسنة مستحسنة بالطبع ، فكذلك ينبغي أن يكون طلب العلم ، ومستند المأمون في رأيه قوله (عليه السلام) : «اطلب العلم من المهد الى اللحد» .

هذا أثر من آثار حب المأمون للعلم ، أما حبه للمناظرات العلمية واهتمامه بأمرها ، فالشاهد عليه ما قاله المؤرخ المسعودي . ونحن ذاكروه لكم ملخصاً :

« بعد أن قضى المأمون نهيمه من العلوم القديمة ودراسة كتبها ، انصرف عنها الى علم الكلام على طريقة المعتزلة ، وجعل يجالس المتكلمين ويقرب الجدليين والنظارين : كالنظام وأبي الهذيل وغيرهما ممن كان يوافقهم أو يخالفهم (أي أن المأمون لما كان يقصر عنايته على علماء مذهبه المعتزلة بل كان يفسح صدره ويجلسه لعلماء الفرق على اختلاف آرائهم ومشاربهم) . وكان يستقدم العلماء من الأمصار البعيدة . ويجري عليهم الأرزاق . فرغب الناس في صناعة النظر والمناظرة . وتعلموا البحث والمجادلة . ووضع كل فريق منهم كتاباً ينصر فيها مذهبه . ويؤيد نحلته . رافعاً بذلك صوته من دون خوف ولا إجماع .

وقد خصص المأمون يوم الثلاثاء من كل أسبوع للمناظرة . ووضع لذلك ترتيباً خاصاً : فإذا حضر المتناظرون من أرباب المقالات أدخلوا حجرة مفروشة . وقيل لهم : اتزعوا نعالكم . ثم تحضر الموائد ، ويقال لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجلدوا الوضوء ، ومن خففه ضيق فليزعه . ومن ثقلت عليه فليسهته فليضمها . فإذا فرغوا أتوا بالحامس فبخروا وطيبوا . ثم يخرجون الى المأمون فيستندبهم ، حتى يدنون منه ، وينظرون أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجيزين ، فلا يزالون كذلك الى أن تزول الشمس وهو وقت الظهر . ثم تنضب الموائد مرة ثانية للمساء فيطعمون وينصرفون » .

* * *

وإني أيها السادة ذاكر لحضراتكم في موقعي هذا إحدى المناظرات العجيبة التي جرت في مجلس المأمون وكان لها دوي عظيم في ذلك الزمان ، وتأثير كبير في نفوس أهلها ، بل إنها خفتت من غلو المأمون أيضاً في بعض آرائه ،

وذلك لأنها تعلقت بمسألة علمية دينية فلسفية : هي أول مسألة قامت حولها الدنادن والمجادلات بين علماء العرب في عصرهم الأول وشرطتهم شطرين : (معتزلة) و (سنة) تلك المسألة هي :

(هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق) ؟

وموضع الخطورة في هذه القضية : أننا إذا قلنا إن القرآن مخلوق . يقال لنا : كيف يكون مخلوقاً وهو كلام الله وكلامه قديم كذاته . وإذا قلنا إنه غير مخلوق : كيف نقول إنه غير مخلوق ونحن نسمعه أصواتاً ، ونكتبه حروفاً ، ونجمله مصحفاً ، ونحمله بأيدينا من مكان إلى آخر . هذا ظاهر الخلاف في هذه المسألة . وربما كان له باطن لا يمكننا التصريح به ، ولا الإشارة إليه في هذا الوطن . وإنما نقول بالاختصار : إذا أردنا من القرآن كلام الله كان قديماً لأنه يكون إذ ذاك عبارة عن صفة من صفاته تعالى وهي قديمة . وإن أردنا بالقرآن ما عدا الصفة القديمة من صوت مسموع . ومصحف مصنوع كان حادثاً .

هذه المسألة على بساطتها ووضوحها كان لها في تاريخ الإسلام الديني أسوأ الأثر . وآل الأمر فيها إلى أن يسجن مثل الامام أحمد بن حنبل وبقيد ويعذب . وكان سواد الأمة ومعظم علمائها من الفريق القائل بأن القرآن قديم . أما الفريق القائل بأنه حادث ويسمى المعتزلة فاتفق له من بعض خلفاء بني العباس من يأخذ بقوله . ويحمل الناس عليه . ومن ثم كانت صولته أشد . وعامل جبروته أنفذ . وكان من هؤلاء الخلفاء الذين أبدوا القول بالحدوث الخليفة (المأمون) . فكان هذا الخليفة على ما فيه من علم صحيح ، وعقل حصيف ، يشدد على الناس . ويكلفهم القول برأيه ومذهبه . فكان الناس لهده يستترون في بيوتهم . وينقطعون عن شهود الجمعة والجماعة ويتسللون

من بلد الى بلد خشية الفتنة والارهاق . وقد مُنِع الفقهاء والمحدثون من القعود للناس في المسجد الجامع الواقع في الجانب الشرقي من الرصافة وفي غيره من المواضع : إلا (بشرأ المرئسي) و (محمد بن الجهم) ومن رأى رأيها من علماء المعتزلة الفائلين بحدوث القرآن . وكل من أظهر مخالفتهم قيد اليهم . وعرض قوله عليهم . فان أصرر 'نكّل' به أو نفي من الأرض . وكان كثيرون من العلماء يوافقونهم في الظاهر خوفاً على أنفسهم . وفي الباطن يبرأون الى الله مما أعلنوه .

* * *

شاع أمر هذه الخنة في بغداد . وجعل أهل الأمصار الاسلامية يتداولون خبرها . ويتعوذون بالله من شرها .

قال (عبد العزيز بن يحيى الكناني) : (وهو من جماعة ^(١) أهل السنة) :
انصل بي وأنا في مكة ما ابتلي به الناس في بغداد ، وكيف استطال عليهم بشر المرئسي ، ولبس على (المأمون) وخواص مملكته ، فأطال همي هذا الخبر ، وأطار نومي ، فخرجت من مكة ، متوجهاً الى ربي . وأسأله سلامي ، حتى قدمت بغداد ، فشاهدت من غلظ الأمر وامتداده أضعاف ما كان يصل إلي . وبعد أن وصل (عبد العزيز الكناني) الى بغداد جعل يبتهل الى الله أن يسدده وبلّث قدمه ويرشده الى طريقة يتوصل بها الى قهر تلك الفئة الجائرة . فبدأ له أن يخفي أمره عن الناس جميعاً خشية أن 'ينكّل' به قبل أن يُسمع كلامه . ثم خطر له خاطر عجيب وهو أن يقف بعد صلاة الجمعة في جامع الرصافة . ويرفع صوته بمخالفة المعتزلة . وتسفيه آرائهم ، وطلب محاجّتهم . فان اشهاره نفسه على هذه الصورة يحول دون البطش به ، قبل مناظرته ، واستماع قوله .

(١) توفي سنة « ٢٤٠ هـ » .

ثم ذهب عبد العزيز ومعه ابن له صغير الى جامع الرصافة يوم الجمعة ولم يكذبته
بنتهي الإمام من الصلاة حتى سمع الناس من الصف الأول حياال المنبر صوت
رجل مكّي الزيّ ، حجازي اللهجة ، واقف على قدميه . يُنادي بأعلا صوته
ابنه (وكان أقام ابنه قبالة عند الأسطوانة الأخرى) قائلا :

الأب : ما تقول في القرآن يا بُني ؟

الابن : كلام الله منزل غير مخلوق يا أبت .

فارتاع الناس لهذه المحاوره ، وهربوا على وجوههم خارجين من المسجد
فأسرعت الشرطة فاحتملوا عبد العزيز وابنه الى رئيسهم (عمرو بن مسعدة) وهو
من أشهر رجال دولة المأمون ، وقد اتفق مجيئه بومئذ ليصلي الجمعة في جامع
الرصافة . (ولما وقف عبد العزيز وابنه بين يديه) سأله :

رئيس الشرطة : أجنون أنت ؟

عبد العزيز : لا .

الرئيس : أموسوس أنت ؟

عبد العزيز : لا .

الرئيس : معتوه ؟

عبد العزيز : لا ! والحمد لله . واني لصحيح العقل ، جيد الفهم .

الرئيس : أمظلوم أنت ؟

عبد العزيز : لا .

فالتفت رئيس الشرطة الى رجاله وقال لهم : صرّوا بالرجل وابنه صبحا الى
الدار (أي دار الشرطة) .

فاحتملها الشرطة وجعلوا يندون بها عذوا شديدا ، وأيديها في أيديهم
يمنة ويسرة . حتى صاروا بها الى (دار الرئيس) على هذه الحالة المنكرة .

وكان رئيس الشرطة ضيقهم اليها . فأدخلا عليه وهو جالس في صحن الدار على كرمي من حديد وشواره^(١) عليه . فسأله قائلاً :

الرئيس : من أين أنت ؟

عبد العزيز : من مكة .

الرئيس : ما حملك على ما صنعت بنفسك ؟

عبد العزيز : طلبت القرية الى الله . ورجوت الزلفى لديه .

الرئيس : هلاً فعلت ذلك صراً من غير نداء . ولا اظهار مخالفة لأمر المؤمنين .

ولكن أردت الشهرة والرياء والسؤدد . لتأخذ أموال الناس بالباطل .

عبد العزيز : ما أردت إلا الوصول الى أمير المؤمنين والمناظرة بين يديه .

الرئيس : وهل تقدم على المناظرة بين يدي خليفة ؟

عبد العزيز : نعم . وهذا ما قصدته وبلغت بنفسي ما ترى . وتفريري بنفسي .

وسلوكي البراري أنا وولدي . رجاء تأدية حق الله فيما استودعني

من العلم والفهم في كتابه . وما أخذه عليّ وعلى العلماء من البيان

(فليتأمل علماء هذا الزمان) .

الرئيس : لعلك جعلت هذا سبباً لغيره من المطالب بعمد أن تجل الى

أمير المؤمنين . إذا كنت تنوي ذلك فقد حلّ دمك .

عبد العزيز : إن تكلمت في شيء غير هذا ، وجعلت هذا ذريعة له فدمي حلال .

فوثب رئيس الشرطة عن كرسيه . وقال لأعوانه: أخرجوه بين يديّ الى الخليفة .

(١) والشوار بفتح الشين اللباس والزينة ، فشوار رئيس الشرطة وشوار أصماء

الجند : هو اللباس الرسمي ذو الطراز والركشة الذي يدل على مرتبتهم .

أما اذا قالوا أقبل الوزير وسواده عليه فيمنون بالسواد اللباس الأسود الذي

كان يلبسه القضاة والوزراء وكبار الكنتاب . فهو لباسهم الرسمي وعندهم أخذ

الأتراك العثمانيون لباس السواد الرسمي .

قال عبد العزيز : فأخرجوني أنا وابني بين يديه وهو راكب على فرسه ، وجعلوا يعدون بنا في شوارع بغداد على وجوهنا وأبدننا في أيديهم حتى وصلنا الى قصر الخلافة في الجانب الشرقي من بغداد .

فدخل رئيس الشرطة على المأمون . وبقيت أنا وابني في الدهليز واقفين على أرجلنا ، فأطال . ثم خرج الى حجرة له وأمر أعوانه باحضاري . ثم افتتح الحديث معي قائلاً :

الرئيس : أخبرت أمير المؤمنين بخبرك وما فعلته في المسجد وما سألته من الجمع بينك وبين مخالفيك للمناظرة بين يديه ، وقد أمر - أطال الله بقاءه وأعلا أمره - بإجابتك الى ما سألت . وأمر بجمع المناظرين من العلماء الى مجلسه - أعلاه الله - في يوم الاثنين الأدنى ، وقال انه سيحضر هو بنفسه معكم . فتتناظرون بين يديه ويكون هو الحكم بينكم .

عبد العزيز : أطال الله بقاء مولانا أمير المؤمنين . وأبد دولته .

الرئيس : أعطنا كفيلاً بنفسك حتى تحضر معهم يوم الاثنين . وليس بنا حاجة الى حبسك .

عبد العزيز : أدام الله عزك ! أنا رجل غريب ، ولست أعرف في هذا البلد أحداً . ولا يعرفني من أهلها أحد . فمن أين لي من يكفل بي . وعلى الأخص بعد أن أظهرت مقالتي . لو كان أهل بغداد يعرفونني حق المعرفة لتبرأوا مني ، وهربوا من قربي ، وأنكروني .

الرئيس : نوكل بك من يكون معك حتى يحضر بك في ذلك اليوم وتنصرف الآن فتصلح من شأنك . وتتفكر في أمرك . فلكمك ترجع عن غيك . وتشوب من فعلتك ، فيصفح أمير المؤمنين عنك .

عبد العزيز : ذلك اليك أعزك الله فافعل ما رأيت .

* * *

ولما جاءت غداة يوم الاثنين • حمّل عبد العزيز مكرّمًا الى دار الخلافة وأدخل الى حجرة (رئيس الشرطة) فسأله هذا : عما اذا كان لم يزل مقيمًا على رأيه • ثم نصّح له وحذّره • وخوّفه عاقبة مخالفته أمير المؤمنين فيما اذا ظهر عليه مناظره • وإنه ليس حينئذٍ إلا السيف • وإنه إن كان ندم ورجع عن مقالته فإنه يسأل العفو عنه من أمير المؤمنين • وضمن له جائزة وقضاء ماله من حاجة •

فأجابه عبد العزيز : بأنه ما خرج من بلده (مكة) إلا لإقامة الحق • الرئيس : وقد وقف على رجليه : — قد حرصتُ على خلاصك أيها الرجل جهدي • وأنت حريصٌ على سفك دمك جهدك • عبد العزيز : معونة الله أعظم والطف من أن ينساني • وعدلُ أمير المؤمنين أوسعُ من أن يضيق عني •

وكان قد صدر أمر الخليفة المأمون الى أقاربه أشباخ بني هاشم أن يركبوا الى قصر الخلافة في يوم الاثنين لأجل شهود المناظرة ، والى الفقهاء والقضاة الموافقين للمتمزلة على مذهبيهم ، والى سائر المتكلمين والمناظرين أن يحضروا ، والى القواد والأولياء ^(١) أيضًا •

وفي يوم الاثنين هذا ركب المدعوون كلهم بالسلاح لإحداث الهبة في نفس عبد العزيز وفي نفوس الذين على رأيه ، ومن يوشك أن يفسدهم بعقيدته • قال عبد العزيز :

ثم أذن لي بالدخول الى الخليفة ، فدخلت ثم لم أزل أثقل من دهليز الى

(١) المراد بالأولياء الموالون والميالون بالحب والاخلاص للخلافة ، وليس المراد بالأولياء ما نفهمه نحن اليوم من انهم اهل الباطن وشيوخ رجال الطريق وكبار المتصوفين والمشهورين بالكرامات •

ذهليز . حتى وصلت الى (الحاجب) أي صاحب الستر الذي على صحن دار الخلافة .

قال عبد العزيز : ولما بلغت الحاجب سألتني إن كنت أحتاج الى تجديد الوضوء ؟ فقلت مالي الى ذلك حاجة . فقال : ار كع ركعتين . فصلى عبد العزيز أربع ركعات بدل الركعتين ودعا الله بقلب سليم . عندها قال له الحاجب : استخّر الله . وتم فادخل .

قال عبد العزيز : ثم أراح الحاجب الستر ، وتقدم الى خدام القصر ، فأخذوا بيدي وعضدي . وجعل جماعة منهم أبدعهم في ظهري وعلى رقبي ، وطفقوا بمدون بي عدواً شديداً في صحن الدار ، فنظرني الخليفة المأمون من بعيد ، فسمعت صوته يقول ، خذوا عنه ، خذوا عنه . وكثر ضجيج الحجاب وقواد العسكر ورفعوا أصواتهم مرددين كلمة الخليفة : (خلوا عنه ، خلوا عنه) . فخذوا عني . وقد كاد بتغير عقلي من شدة الفزع . ومن كثرة ما رأيت من أنواع السلاح ، الذي ملا صحن القصر . وكنت قليل الخبرة بدار الخلافة . مارأيتها قبل ذلك ولا دخلتها .

فلما أوصلني الحجاب الى باب ديوان الخليفة وقفت . فسمعت (المأمون) يقول : أدخلوه وقرّبوه . فلما دخلت من باب الديوان ، وقعت عيني عليه . وقبل ذلك لم أكن انتبهت اليه من كثرة ما كان على الباب من القواد والحجاب فقلت :

— السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

— وعليكم السلام ورحمته وبركاته . ثم قال : أذن مني . فدنوت منه . ثم جعل يقول : أذن مني . فدنوت منه . ثم جعل يقول : أذن ، أذن . ويكرر ذلك . وأنا أدنو خطوة خطوة . حتى وصلت الى الموضع الذي

يجلس فيه المتناظرون . ويُسمع كلامهم . والحاجب معي بقدمي . فلما انتهيت الى موضعي . قال لي المأمون : اجلس فجلست . ولم أكد أستقر حتى سمعت رجلاً من جلساء الخليفة يقول : يا أمير المؤمنين بكفيك من كلام هذا الرجل قبح وجهه . فوالله ما رأيت أقبح وجهاً منه .

قال عبد العزيز : فسمعت قول هذا الرجل وفهمته وما رأيت شخصه لكثرة ما أنا عليه من الجزع والرعدة . وقد لاحظ المأمون مني ذلك الخوف وما قد نزل بي من الهول . فحمل ينظر إليّ من طرف عينه وأنا أنتفض وأرتعد . فأحب أن يؤانسني ويسكن روحي ، فطفق يكثر من الكلام مع جلسائه . وبكم رئيس الشرطة (عمرو بن مسعدة) . وبكم بأشياء لا مناسبة لها في المجلس ، وهو يريد بذلك إبنامي ، وتسكين اضطرابي . ثم أدار نظره في الديوان وجعل يطيل التأمل في الجدران ، فوقعت عيناه على موضع من نقش الجص قد انتفخ . فقال مخاطباً رئيس الشرطة (عمرو بن مسعدة) : يا عمرو ! أما ترى هذا النقش في الجص قد انتفخ وصيقع ؟ فبادر الى قلعه وعمله . فقال عمرو : قطع الله يد صانعه : فإنه قد استحق العقوبة على عمله هذا .

ثم أقبل المأمون على عبد العزيز يسأله :

المأمون : ما الاسم ؟

عبد العزيز : عبد العزيز .

المأمون : ابن من ؟

عبد العزيز : ابن يحيى بن مسلم .

المأمون : وما اسم جدك ؟

عبد العزيز : ميمون الكناني .

المأمون : أو أنت من كنانة ؟

عبد العزيز : نعم يا أمير المؤمنين .

وسكت المأمون هنيئة لا يتكلم . ثم سأله :

المأمون : ومن أي البلاد أنت ؟

عبد العزيز : من الحجاز .

المأمون : من أي الحجاز ؟

عبد العزيز : من مكة .

المأمون : ومن تعرف من أهل مكة ؟

عبد العزيز : يا أمير المؤمنين قل من يها من أهلها الا وأنا أعرفه . إلا رجل لجأ اليها أو من جاور بها فاني لا أعرفه .

المأمون : أتعرف فلاناً وفلاناً . وجعل يعدد جماعة من بني هاشم .

عبد العزيز : نعم يا أمير المؤمنين أعرفهم .

المأمون : وأنسابهم وأنسابهم (وذكر شيئاً من ذلك) .

عبد العزيز : نعم . (وأجابه عما سأل) .

قال عبد العزيز : وإنما أراد المأمون إيناسي وإزالة الوحشة عني فأنشطُ للكلام

والمناظرة . وبالفعل ذهب عني ما كنت فيه من الجزع . وجاءت المأمونة من الله .

فقوي بها ظهري . واشتد قلبي . واجتمع فهمي .

ثم أقبل المأمون عليّ وقال : يا عبد العزيز ! إنه قد بلغني ما كان منك .

وقيامك في المسجد الجامع . وقولك إن القرآن كلام الله غير مخلوق . بحضرة

الناس وعلى رؤوس الخلائق . وما كان من مسألتك أن يجمع بينك وبين مخالفيك

لتناظرهم في مجلسي ، ثم أستمع منك ومنهم . وها أنا ذا قد جمعت المخالفين لك

لتناظرهم بين يدي . ولما كونا الحکم بينكم . فان تبينت الحجة لك عليهم

وظهر الحق معك . اتبعتك . وان حكن لهم الحجة عليك والحق معهم عاقبتك .

وان استقلت واستغفيت لقلناك . وعاقبتك . ثم أقبل بوجهه عليّ (بشر المريسي)

وقال له : يا بشر ! اقم الى عبد العزيز فناظره وأنصفه . م (٢)

فوثب بشر من موضعه كالأسد يثب إلى الفريسة فرحاً . فانحط علي .
 ووضع ركبته وفخذيه الأيسر على فخذي الأيمن فسكاد أن يحطمه . وغمز علي
 بقوة كلها . فقلت له مهلاً : إن أمير المؤمنين لم يأمر بك بقتلي ولا بظلمي .
 وإنما أمرك بمناظرتي وإنصافي . فصاح به المأمون وقال : تنح عنه يا بشر ،
 وكرّر ذلك عليه . حتى باعده عني . ثم أقبل المأمون علي وقال : يا عبد العزيز
 ناظره على ما تريد . واحتج عليه ، واحتج عليك ، وتساءله ويسألك ، وتناصفا
 في كلامكما ، وتحفظا ألفاظكما . فقلت : السمع والطاعة لأمر المؤمنين .
 قال عبد العزيز : ولكنني لم أرد أن أشرع في المناظرة قبل أن أنتقم
 من ذلك الرجل الذي سمعته في المجلس يبعيني ويقول عني : إني قبيح الوجه
 مشوه الخلق . فقلت في الرد عليه مخاطباً الخليفة :

يا أمير المؤمنين ! إن يوسف الصديق الذي هو أحسن البشر وجهاً كان
 حسنه وبالاً عليه ، فظلم وسجن . ولما وقف ملك مصر على سعة علمه وحسن
 مهارته في تعبیر الرؤيا صيره على خزائن الأرض . وفي آخر الأمر اعتزل الملك
 الأمور وصار كأنه من تحت يد يوسف .

وبدبهي أن هذه المنزلة التي نالها يوسف ليست إلا لعلمه وفضله ، لا لجمله
 وحسن وجهه ، وقال يوسف للملك : اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ
 عليم . ولم يقل : اجعلني عليها لأنني حسن جميل . فوالله ما أبالي يا أمير المؤمنين
 إن كان وجهي أقبح مما هو الآن مادام أن ربي أعطاني والله الحمد من فهم
 كتابه ، والعالم بتفسيره ما أعطاني .

فتعجب المأمون من قول عبد العزيز ولم يفهم الداعي إليه فسأله :

— أي شيء أردت بهذا القول . وما الذي دعاك إليه ؟

فأجابه عبد العزيز : إني سمعت واحداً من جلسائك يقول : (يا أمير المؤمنين
 يكفيك من كلام هذا قبح وجهه) فأني عيب بلحقني في صنعة ربي عز وجل .

فتبسم المأمون حتى وضع يده على فمه . فقلت : يا أمير المؤمنين ! قد رأيتك تنظر الى نقش الجص في الحائط وتذكر انتفاخ الجص ، وسمعت رئيس الشرطة يعيب الصانع ولا يعيب الجص . فقال المأمون : نعم ! العيب لا على الشيء المصنوع ، إنما العيب على صانعه . فقلت : صدقت يا أمير المؤمنين وقلت الحق . فهذا الرجل الذي عاب ويحيي يعيب ربي لم خلقتني قبيحاً !! فازداد المأمون تبسماً حتى ظهر ذلك عليه . ثم قال : يا عبد العزيز ! ناظر صاحبك ، فقد طال المجلس بغير مناظرة .

عندها دخلا في الجدل وأخذ كل منهما يسرد النصوص استدلالاتاً على مذهبه . الى أن سأل بشر المعتزلي عبد العزيز سؤالاً وكأفه الجواب عليه ، ووافق المأمون قائلاً : هذا يلزمك يا عبد العزيز !!

فلما سمع رفاق بشر الحاضرون في المجلس كابن الجهم وغيره كلام المأمون بالموافقة على طلب بشر جعلوا يضجون ويقولون : ظهر أمر الله وهم كارهون . جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . وطعموا في أن المأمون يبطش بعبد العزيز .

واستوى بشر في جلسته وجثا على ركبتيه . وجعلوا يقولون : أقر والله يا أمير المؤمنين بخلق القرآن .

أما عبد العزيز فأمسك عن الجواب ، ولم يرد عليهم . فقال له المأمون : مالك لا تتكلم يا عبد العزيز ؟ فقال : ان الذي بناظرني هو بشر . وقد سألتني وانتظر مني الجواب ، فضجيج هؤلاء أيش هو ؟ وأنا لم أقطع ولم أعجز عن الجواب ، ولست سأنتكم ما لم يسكتوا .

فصاح المأمون بمحمد بن الجهم ومن معه أن يسكتوا فسكتوا ، ثم أقبل علي وقال : تكلم يا عبد العزيز واحتج لنفسك . فجعل عبد العزيز يتدفق في الكلام ومترد الحجج كأنه السيل .

فصاح بشر : يا أمير المؤمنين ! لو تركته يتكلم لجاء بالترهات .
فقال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ! قد جئتُ أنا بالحجج ورضي بشر
وأصحابه بالضجيج ، وقطع المجلس ، ومحاولة التملص والخلاص ، ولا خلاص
من الله حتى يُظهر الحق ويُزهق الباطل . قال عبد العزيز : فتبسم المأمون
حتى غطي فيه يده ، وأطرق بنكت الأرض بأصبعه .

ثم صاح المأمون : يا بشر ! أقبل على صاحبك ، ودع هذا الضجيج .
وعادا الى المناظرة مجدداً ونشاطاً . وكان كلما ذكر بشر دليلاً على مذهبه ،
نقضه له (عبد العزيز) بأدلة من القرآن ، حتى كأنما آياته كلها مرسومة
تحت عينيه .

مثال ذلك : أن (بشر) استدلل على خلق القرآن فقال : لا جدال أن
القرآن شيء من الأشياء ، والله تعالى يقول في كتابه العزيز إنه (خالق
كل شيء) فيكون القرآن من تلك الأشياء التي خلقها .
فأجابه عبد العزيز بما خلاصته :

قال تعالى : (ويحذركم الله نفسه) ، فإله نفس . ثم قال في آية أخرى :
(كل نفس ذائقة الموت) ، فهل تقول يا بشر ! إن نفس الله داخلية في هذه
النفوس التي تذوق الموت ؟

فصاح المأمون بأعلا صوته وكان جمهوري الصوت : معاذ الله ! معاذ الله !
وهكذا كان عبد العزيز بدحض حجج خصمه بشر . ويكسر أقواله
بالكتاب والسنة والقياس ، حتى قال له المأمون أخيراً أحسنت يا عبد العزيز .
ثم أمر له بعشرة آلاف درهم . فحلت بين يديه . وانصرف من مجلسه
على أحسن حال وأجملها .

قال عبد العزيز : ولم يشع خبر هذه المناظرة بين اخواني أهل السنة حتى

‘مروا جميعاً بما وهب الله لهم على يدي’ من إظهار الحق • وقوع الباطل •
وانكشف عن قلوبهم ما كان اكتنفها من الغم والحزن • وجعل الناس يحيطون
الى زيارتي مهئين أفواجا أفواجا • فخسيت على نفسي العاقبة • فأغلقت بابي
واحتجيت عنهم • خوفاً على نفسي بل خوفاً عليهم من مكروه يلحقهم بسبي •
ثم أحيوا عليّ قائلين : لا بد أن ‘تملي علينا ما جرى بينكما من الاحتجاج لنعرفه
ونعلمه • فتهيب ذلك ، وتخزفت سوء عاقبته • فلما أكثروا من الإلحاح ،
قلت : أنا لم أذكر لكم بعض ما جرى مما لا يلحقني ضرر بذكره فرفضوا به •
فأملت عليهم أوراقي ، أودعتها تنقاً من أخبار المناظرة ثم وزعتها بينهم •
ليشتغلوا بها عني ، وينقطعوا عن ملازمة بابي •

* * *

هذا أيها السادة ما وسعت الوقت من أخبار هذه المناظرة التاريخية المتممة ،
على أنني لم أذكر من متعلقاتها إلا ما كان فيه دلالة على عادات ذلك العصر
ومشارب أهله ، وأخلاق عياله ، ولا سيما أخلاق (المأمون) وحملته وإنصافه •
ولو أنني توسعت فذكرت لكم مسائل المناظرة نفسها وسردت المناقشات
العلمية والنصوص الدينية التي كان يتداولونها ويبحثان فيها : من جهة اللغة تارة ،
ومن جهة القياس تارة أخرى - لو سردت ذلك لكم ، لضاقت منكم الصدر ،
ولكان لكم في الانقضاء من حول محاضركم أجمل العذر •

المغربي

—••••—